الناشىء الفقير [١]

لي ولد وحيد في السابعة من عمره لا أستطيع على حبي اياه . وافتتاني به . أن اتركهُ من بعدي غنياً لاني فقير . وما انا بآسف على ذلك ولا مبتئس . لاني أرجو بفضل الله وعونهِ ورحمتهِ واحسانهِ . أن اترك لهُ ثروة من العقل والادب. هي عندي خير الف مرة من ثروة الفضة والذهب

أحب ان ينشأ معتمداً على نفسهِ في تحصيل رزقهِ . وتكوين حياتهِ . لا على أي شيء آخر حتى على الثروة التي يتركها لهُ ابوهُ . ومن نشأ هذا المنشأ . والف أن لا يأكل الاَّ من الخبز الذي يصنعهُ بيده نشأ عزوفاً عيوفاً مترفعاً لا يتطلع الى ما في يد غيره . ولا يستعذب طعم الصدقة والاحسان

أحب ان ينشأ رجلاً . ولا سبيل الى الرجولة إلاَّ من ناحية العمل . وقلما يعمل العامل الاَّ بسابق من الضرورة ودافع من الحاجة . وفرق بين الفتى الذي يعمل لتنمية ثروتهِ وتعظيم شأنها شرهاً وفضولاً . وبين الفقير الذي يعمل لتحصيل قوتهِ . وتقويم أود حياتهِ

أحب ان يعيش فرداً من افراد هذا المجتمع الهائل المعترك في ميدان الحياة يصارع العيش ويغالبهُ . ويزاحم العاملين بمنكبيهِ . ويفكر ويتروَّى . ويجرب ويختبر . ويقارن الامور بأشباهها ونظائرها . ويستنتج نتائج الاشياء من مقدماتها . ويمر مرة وينهض اخرى . ويخطىء حيناً ويصيب أحياناً . فمن لا يخطىء لا يصيب . ومن لا يمر لا ينهض حتى تستقيم لهُ شؤون حياتهِ

ذلك خير لهُ من ان يجلس في شرفة من شرف قصره مطلاً على العاملين والمجاهدين يمتع نظرهُ بمرآهم كأنما يشاهد رواية تمثيلية في احد ملاعب التمثيل

أحب ان يمر بجميع الطبقات ويخالط جميع الناس ويذوق مرارة العيش ويشاهد بعينهِ بؤس البؤساء . وشقاء الاشقياء . ويسمع بأذنهِ أنات المتألمين .

---

(١) وهي الخطبة التي القاها حضرة الكاتب في الحفلة السنوية لجمعية القديس جاورجيوس يوم ٢٩ فبراير الماضي للحكم في المناظرة التي جرت في تلك الحفلة بين جماعة من الادباء الافاضل في موضوع « أيهما اصلح للانسان ان يولد فقيراً او غنياً »

وزفرات المتوجعين . ليشكر الله على نعمته إن كان خيراً منهم . ويشاركهم في همومهم وآلامهم ان كان حظهُ في الحياة مثل حظهم. ولتنمو في نفسهِ عاطفة الرفق والرحمة. فيعطف على الفقير عطف الاخ على الاخ ويرحم المسكين رحمة الحميم للحميم

أما الغني الذي لم يذق طعم الفقر في حياتهِ فقلما يشعر بآلام الناس ومصائبهم او يعطف على بأسائهم وضرائهم . فان حاول يوماً ان يمد يدهُ بالمعونة الى بائس او منكوب . فعل متفضلاً ممتناً . لا راحماً ولا متألماً

والالم هو الينبوع الذي تتفجر منهُ جميع عواطف الخير والاحسان في الارض. وهو الصلة الكبرى بين افراد المجتمع الانساني . والجامعة الوحيدة التي تجمع بين طبقاتهِ واجناسهِ . بل هو معنى الانسانية وروحها وجوهرها . فمن حرمهُ حرم كل فضيلة من فضائل النفس . وكل مكرمة من مكرماتها . وأصبح بالصخرة الصلدة الصماء اشبه منهُ بالانسان الناطق

أحب ان يجوع ليجد لذة الشبع . وينظمأ ليستعذب طعم الري ويتعب ليشعر ببرد الراحة . ويسهر لينام ملء جفونهِ . اي انني احب لهُ السعادة الحقيقية التي لا سعادة في الدنيا سواها

وما السعادة في الدنيا الاَّ لمحات كلمحات البرق تخفق حيناً بعد حين في ظلمات الشقاء . فمن لا يرى تلك الظلمات لا يراها . واشقى الاشقياء اولئك المترفهون الناعمون الذين يوافيهم الدهر بجميع لذائذهم ومشتهياتهم . فلا يزالون يمعنون فيها ويتقلبون في جنباتها حتى يستنفدوها. فيستولي على عقولهم مرض السآمة والضجر فيتألمون من الراحة اكثر مما يتألم التعب من التعب. ويقاسون من عذاب الوجود اكثر مما يقاسي المحروم من عذاب الحرمان . وقد تدفعهم تلك الحالة الى الالمام بمشتهيات غريبة لا تتفق مع الطبيعة البشرية ولا تدخل تحت حكمها تفريجاً لكربتهم . وتنفيساً عن انفسهم . وما هؤلاء المساكين الذين يراهم سهارى طوال لياليهم في ملاعب القمار ومجالس الشراب ومواقف الرهان الاَّ جماعة الفارين من سجون السآمة والملل يعالجون الداء بالداء . ويفرون من الموت الى الموت

أحب ان يكون غنياً بالمعنى الحقيقي لا بالمعنى الاصطلاحي . اي أن يكون مستغنياً بنفسه عن غيرهِ لا كثير المال والثراء . وما سمي المال غنى الاَّ باعتبار

انهُ وسيلة الى الغنى وطريق أليه . وهو اعتبار خطأ ما في ذلك ريب . فان اكثر الناس فقراً الى المال واشدهم طمعاً في احرازه واعظمهم مخاطرة بكرامتهم وفضائل نفوسهم في سبيلهِم الاغنياء اصحاب المال والثراء . وان كان في الدنيا شيء يسمى قناعة واعتدالاً فهو في جانب الفقراء المقلين اكثر منهُ في جانب الاغنياء المكثرين . ولا يزال المرء يعتبر المال وسيلة الى الحياة وذريعة من ذرائعها حتى يكثر في يده فاذا هو في نظره الحياة نفسها يجمعهُ ولا يدري ماذا يريد منهُ . ويعبدهُ وهو لا يرجو ثوابهُ . ولا يخشى عقابهُ . ويستكثر منهُ وهو على ثقة من نفسهِ بأنهُ لا ينتفع بقليله فضلاً عن كثيره . واذا بلغ المرء في حالتهِ العقلية الى درجة ان تنقلب في نظرهِ حقائق الكون وتتغير نواميسه فيرى الرؤوس أذناباً والاذناب رؤوساً . والوسائل غايات . والغايات وسائل فقل على عقلهِ السلام

لا اكره ان ينشأ ولدي غنياً ولا احب ان اعرضهُ لخاطر الفقر وآفاته . ولكني أخاف عليهِ الغنى اكثر مما اخاف عليهِ الفقر

أخاف عليهِ ان يعتد بالمال اعتداداً كثيراً ويقدرهُ فوق قدره ويعتبرهُ الكمال الانساني كله فلا يهتم باصلاح اخلاقهِ وتهذيب نفسهِ . وان لا يجد من حوله من اصدقائهِ ومعارفهِ مرآة يرى فيها عيوبهُ وهناتهِ . لان عشراء الاغنياء متملقون مداهنون يطوون سيئاتهم ويزخرفون حسناتهم

أخاف عليهِ ان تستحيل نفسهُ الى نفس مادية جامدة لا تفهم من شؤون الحياة غير المادة ولا تعنى بشيء سواها . فيصبح رجلاً قاسياً صلباً ميت النفس والعواطف لا يرحم بائساً . ولا يعطف على محزون . ولا يرثي لامة . ولا يبكي على وطن . ولا يشترك في شأن من شؤون العالم العامة خيرها أو شرها . ولا يعنيهِ ما دام راضياً عن نفسه مغتبطاً بحظه أستقطت السماء على الارض ام بقيت في مكانها

أخاف عليهِ ان يحتقر العلم والفنون والآداب . ويزدري المواهب والعقول والفضائل والمزايا . فيصبح عار امته وشنارها . ووصمتها الخالدة التي لا تزول . ومن أشرب قلبهُ حب المال ونزل من نفسه الى قرارتها لا يحترم غيره ولا يقيم لغير اربابه وزناً . ويخيل اليهِ ان من عداهم من فئات الناس لا شأن لهم في الحياة بل لا حق لهم في الوجود

أخاف عليهِ ان تزوج ان يأبى الزواج الاَّ من غنية يرى انها هي التي تليق بمقامهِ ومنزلتهِ . ومن اشترط الغنى في زوجة لا يستطيع ان يشترط شيئاً سواهُ . فيسقط في زواجهِ سقطة يشقى بها طول حياتهِ من حيث لا ينفعهُ مالهُ ولا جاههُ

أخاف عليهِ ان وُلد ان لا يجد بين اوقاتهِ ساعة فراغ يتولى فيها النظر في تهذيب ولدهِ وتربيتهِ . فيتركهُ صغيراً في ايدي الخدم . وكبيراً في ايدي عشراء السوء . فيصبح نكبتهُ الكبرى في حياتهِ . وعارهُ الدائم بعد مماتهِ

أخاف عليهِ ان يقضي ايامهُ ولياليهُ خائفاً مذعوراً مروَّع القلب مستطار الفؤاد تقتلهُ الخسارة ان خسر . ويصعقهُ فوتُ الربح ان فاتهُ . ويطير بنومهِ وهدوئهِ ويذهب براحته وسكونهِ هبوط الاسعار . ونزول الاسهم . وتقلبات الاسواق . وخسران القضايا . ومنازعات الخصوم . والآفات السماوية . والجوائح الارضية

وما حزن الفقير الذي انفق آخر درهم كان بيدهِ من حيث لا يعرف لهُ طريقاً الى سواهُ على نفسهِ وعلى مستقبلهِ باشد من حزن الغني الشحيح على الدرهم الذي نقص من مليونهِ . أو الذي كان يؤمل ان يتمم بهِ مليونهُ فلم يتح لهُ

وما ليلة البائس المسكين الذي يتصايح اولادهُ من حولهِ جوعاً ولا يجد ما يسد بهِ رمقهم باطول من ليلة الغني الذي يسقط اليهِ الخبر بأن سلعة من سلعهِ قد نفقت . او ان سهماً من اسهمهِ قد نزل

ولقد رأيت بعيني من جُنَّ وهو واقف ينظر الى قصر من قصورهِ يحترق وسمعت كثيراً عن حوادث المنتحرين والمصعوقين على اثر النكبات المالية والخسائر التجارية التي لا تفقرهم . ولا تصل بهم الى درجة الإملاق . بل ربما كان كل اثرها عندهم انها تنقلهم الى منزلة في الغنى ادنى من منزلتهم الاولى

أخاف عليهِ ان يصبح واحداً من اولئك الوارثين المستهترين الذين لا عمل لهم في حياتهم سوى هدم حياتهم بايديهم وهدم ما ترك لهم آباؤهم وأجدادهم من مال وجاه . فاندب حظي في قبري . واقرع السن على ان لم اكن قد فارقت هذه الحياة ولا مال لي فيها ولا ولد

ولا ازال اذكر حتى الساعة اني مررت باحد شوارع القاهرة من بضع سنين فرأيت في مكان واحد منهُ منظرين مختلفين متناقضين . رأيت غلاماً من الوارثين

جالساً باحدى الحانات يمرح في نعمائهِ . وآخر من المتشردين نائماً تحت الرصيف على مقربة منهُ يضطرب في بأسائهِ . اما الاول فقد كان جالساً بين مائدتي شراب وقمار . تسلب الاولى عقله والاخرى مالهُ . وقد احاط به جماعة من الخلعاء الماكرين يلعبون بعقلهِ لعب الغلمان بالكرة في ميادينها . يضحكون لنكاتهِ . ويؤمنون على اقوالهِ . ويصدقون اكاذيبهُ . ويتحركون بحركتهِ . ويسكنون بسكونهِ . وهو يقهقه بينهم قهقهة المجانين ويصيح صياح الثعالب . اما الثاني فقد كان عارياً الاَّ قليلاً . يفتح احدى عينيهِ من حين الى حين كلما رنت في اذنهِ ضحكات هؤلاء السكارى وضوضاؤهم . ويضم ركبتهُ الى صدرهِ كلما احس بصوت مركبة مارة بجانبهِ . وقد يبسط كفهُ احياناً وهو مغمض ان خيل اليهِ ان يداً تمتد اليهِ بالاحسان ولا يد هناك ولا احسان

رأيت هذين المنظرين الغريبين المتباينين فثارت في نفسي في تلك الساعة عاطفتان مختلفتان . عاطفة البغض والاحتقار للاول . وعاطفة الرحمة والشفقة على الثاني . وقلت في نفسي لو كان لي ولد وكان لا بد لهُ من ان يكون احد هذين الغلامين إما الوارث الجالس فرق الرصيف ينثر الذهب نثراً . او المتشرد النائم من تحتهِ يسأل الناس لقمة فلا يجدها لفضلت ان أراهُ بين فئة المتشردين على ان أراهُ بين جماعة الوارثين لاني ارجو لهُ في الاولى ان يجد بين الراحمين واحداً يحسن اليهِ ويستنقذهُ من شقائهِ ويأخذ بيدهِ في طريق الحياة الطيبة الصالحة اما في الثانية فاني لا ارجو لهُ شيئاً

ان للرحمة طيشاً كطيش القسوة والشدة . واطيش الراحمين ذلك الذي يستنفد ايام حياتهِ في جمع الثروة لاولادهِ دائباً لهُ ونهارهُ لا يهدأ ولا يفتر من حيث يغفل النظر في شأن تربيتهم وتعليمهم ضنّاً بهم ان يزعج نفوسهم بشيء من تكاليف الحياة وأشقائها . فاذا ذهب لسبيلهِ وخلى بينهم وبين ذلك المال الذي جمعهُ لهم لا يكون لهم من الشأن فيهِ اكثر مما يكون لجماعة الحمالين من الشأن في الاثقال التي يحملونها من مكان الى آخر . فهم ينقلونهُ من خزائنهِ شيئاً فشيئاً الى خزائن الحمارين والمرابين والعاهرين حتى ينتهي . فاذا فرغوا منهُ جلسوا في عرصاتهم المقفرة جلسة الباكي الحزين . صفر الاكف . فارغي الجيوب . مطرقي الرؤوس .

لا حول لهم ولا حيلة . قد اضاعوا حياتهم وحياة آبائهم واجدادهم . وهدموا في عام واحد او عامين قرناً كاملاً مجيداً من اعلاهُ الى اسفلهِ . ولا يعلم الاَّ الله ماذا يكون شأنهم بعد ذلك

ولو انهُ كان يرحمهم رحمة حقيقية ويشفق عليهم اشفاقاً صحيحاً لرحمهم من هذه العاقبة الوخيمة . واشفق عليهم من هذا الميراث المشؤوم

يقولون ان الفقر يدفع الى الجرائم والقتل وارتكاب السرقات . وانا اقول اننا اذا استطعنا ان نفهم الجريمة بمعناها الحقيقي وان لا ننخدع بصور الالفاظ والوانها فان للاغنياء جرائم كجرائم الفقراء بل اشد منها خطراً واعظم هولاً . فان كان بين الفقراء اللصوص والقتلة والمياّرون وقطاعو الطريق . فبين الاغنياء المحتالون والمزورون والمغتصبون والخائنون والمداهنون والمماثلون : واصحاب المعامل والشركات الذين يغذون اجسامهم بدماء عمالهم . والتجار الذين يسرقون من الامة في شهر واحد باسم الحرية التجارية مالا يسرقهُ جميع لصوص البلد وعياروه في سنة كاملة . والقوّام والاوصياء الذين يرثون التركات من دون وارثها . ويأكلون اموال اليتامى والمعتوهين باسم صيانتها والمحافظة عليها . والسماسرة الذين يسرقون الاسواق باجمعها . والمرابون الذين يختلسون الثروات باكملها

على ان جرائم اللصوصية والسرقة والقتل ليست جرائم الفقر بل جرائم الغنى . فلولا شح الاغنياء باموالهم وكلبهم عليها وحيازتها عدا الفقراء لما وجد في الارض قاتل ولا سارق ولا قاطع طريق . ولا يسرق السارق ولا ينهب الناهب ولا يلص اللص الاَّ جزءاً من حقهِ الذي كان يجب ان يكون لهُ لو كان للمال زكاة وفرحة سبيل الى الافئدة والقلوب لينتج الاغنياء المدارس وليبنوا الملاجيء وليفتحوا المصانع والمعامل للعاطلين والمتشردين وليتعهدوا المنكوبين والساقطين في ميدان الحياة بالمساعدة والمعونة . فان وجدوا بعد ذلك لصوصاً او قتلة او مجرمين فليتهموا الفقر وليدعوا عليهِ جرائمهُ وآثامهُ

لا اريد ان اقول ان الغنى علة فساد الاخلاق . ولا ان الفقر علة صلاحها . ولكن الذي استطيع ان اقولهُ عن تجربة واستقراء اني رأيت كثيراً من ابناء الفقراء ناجحين ولم ار الاَّ قليلاً من ابناء الاغنياء عاملين

ان العلوم والمعارف . والمخترعات والمكتشفات . والمدنية الحديثة باجمعها . حسنة من حسنات الفقر . وثمرة من ثمراته . وما المداد الذي كتبت به المصنفات ودونت به الآثار الا دموع البؤس والشقاء . وما الآراء السامية والافكار الناضجة التي رفعت شأن المدنية الحديثة الى مستواها الحاضر الا ابخرة الادمغة المحترقة بنيران الهموم والاحزان . وما تفجرت ينابيع الخيالات الشعرية والتصورات الفنية . الا من صدوع القلوب الكسيرة . والافئدة الحزينة . وما اشرقت شموس الذكاء والعقل في مشارق الارض ومغاربها الا من ظلمات الاكواخ الحقيرة والزوايا المهجورة . وما نبغ النابغون من فلاسفة وعلماء وحكماء وادباء الا في مهود الفقر وحجور الاملاق . ولولا الفقر ما كان الغنى . ولولا الشقاء ما وجدت السعادة

ان المجتمع الانساني اليوم ميدان حرب يعترك فيه الناس ويتقاتلون . لا يرحم أحد احداً . ولا يلوي مقبل على مدبر . يعدون ويسرعون . ويتصادمون ويتخبطون . ويأخذ بعضهم بتلابيب بعض . كأنهم هاربون من معركة . او مفلتون من مارستان . ودماء الشرف والفضيلة تسيل تحت اقدامهم . وتموج موج البحر الزاخر . يغرق فيه منهم من يغرق . وينجو من ينجو

أتدرون لم سقطت الهيئة الاجتماعية هذا السقوط الهائل الذي لم تصل الى مثله في دور من أدوار حياتها الماضية ؟ ولم هذا الجنون الاجتماعي الثائر في أدمغة الناس خاصتهم وعامتهم . علمائهم وجهلائهم ؟ ولم هذه الحروب التائمة . والثورات الدائمة . والنزاع المستمر بين البشر جماعات وأفراداً . وقبائل وشعوباً . وممالك ودولاً ؟

لا سبب لذلك سوى شيء واحد . وهو ان الناس يعتقدون اعتقاداً خطأ ان المال اساس السعادة وميزانها الذي توزن به . فهم يسعون اليه لا من اجل القوت والكفاف كما يجب ان يكون . بل من أجل الجمع والادخار . والمال في العالم كمية محدودة لا تكفي لملء جميع الخزائن وتهدئة كافة المطامع . فهم يتخاطفونه ويتناهبونه ويتصارعون من حوله كما تتصارع الكلاب حول الجيف الملقاة . ويسمون عملهم هذا تنازع الحياة أو تنازع البقاء . وما هو بالتنازع ولا التناظر .

انما هو العراك والقتال . والدم السائل . والعدوان الدائم . والشقاء الخالد

والعلاج الوحيد لهذه الحالة المخيفة المزعجة أن يفهم الناس ان لا صلة بين المال وبين السعادة . وان الإفراط في الطلب شقاء كالتقصير فيهِ . وان سعادة العيش وهناءهُ وراحة النفس وسكونها لا تأتي الاَّ من طريق واحد . وهو الاعتدال

***

الآن استطيع غير خاشٍ لوماً ولا عتباً أن اقضي للناشيء الفقير على الناشيء الغني قضاء لا مجادلة فيهِ ولا محاباة . ومن ذا الذي يجامل الفقراء ويحابيهم ؟ وان اقول للناشيء الفقير : صبراً يا بني وعزاء فانك لم تخلق الاَّ للعمل . فاعمل [illegible] ولا تحصد غير الذي زرعتهُ يدك . فان لم تجد معلماً يعلمك فعلم نفسك . والزمن خير مؤدب ومهذب . وان ضاقت بك المدارس فادرس في مدرسة الكون ففيها علوم الحياة بأجمعها . وان كنت ممن لا يعدون وظائف الحكومة ومناصبها غنماً عظيماً كما يعدها القعدة والعاجزون . فها هو ذا فضاء الارض امامك فامشِ فيهِ وفتش عن قوتك كما تفتش عنهُ الطيور القواطع التي ليس لها مثل عقلك وفطنتك وحيلتك وقوتك . فان الله لم يخلقك في هذا العالم ولم يبرزك الى هذا الوجود لتموت فيهِ جوعاً . او تهلك ظمأً . ولا تصدق ما يقولونهُ لك من ان الناشيء الغنيَّ اسعد منك حالاً . او اوفر حظاً وان راقك منظرهُ واعجبك ظاهرهُ . فلكل نفس همومها وآلامها . وهموم الفقر على شدتها اقل هموم الحياة واهونها

وحسبك من السعادة في الدنيا ضمير نقي . ونفس هادئة . وقلب شريف . وان تعمل يدك فترى بعينيك ثمرات مجهودك وساعيك تمر بين يديك وتترعرع فتغتبط بمرآها اغتباط الزارع بمنظر الخضرة والنماء في الارض التي فلحها بيده . وتعهدها بنفسهِ . وسقاها من عرق جبينهِ

مصطفى لطفي المنفلوطي